الحفاظ على المباني التاريخية في بغداد (المشاكل والحلول)

د. امتثال كاظم الموسوي

مركز أحياء التراث العلمي العربي _ جامعة بغداد

تاريخ الاستلام : 2020/8/4

تاريخ القبول : 2020/12/13

الملخص:

تعبر بغداد واحدة من اعرق العواصم العربية في العالم فهي ذات ارث حضاري واثري وثقافي متماسك على مر السنين فحضارة بابل وأشور شغلت العالم لقرون طويلة ، وهناك الكثير من المباني التاريخية المهمة التي تقع في بغداد منها الشوارع والمدارس والبيوتات وكثير من الشواهد الحضارية ، وكانت هذه الشواهد شاهد على عصر ازدهار النهضة الثقافية والفكرية والاجتماعية ،ولكن نظرا للظروف التي مر بها البلد فقد عرضت هذه المباني إلى مشاكل كثيرة منها الإهمال والتعرية وظروف المناخ وكذلك اتساع المدينة وبالتالي زحف العمران السكني عليها ، مما اضر بها ولم تعد تلك البهجة والرقي فيها وهنا يأتي دور المهندس والآثاري والفني والباحث والمشرع من اجل العمل على الحفاظ على هذه المباني وتأهيلها والعمل على أعادة العمل بها ومزجها مع أركان المباني الحديثة ، كما في شارع الرشيد ، المدرسة المستنصرية ، الجوامع والكنائس المنتشرة هنا وهناك .

الكلمات المفتاحية: المباني ، التاريخية ، بغداد

Preserving historic buildings in Baghdad (problems and solutions)

D.R amtithal Kademal.musaei

Center Revia of Arabic Science Heritage Baghdad of university

Dr. amtithalalnakeeb@yahoo.com

07711102220

Receipt date: 4/8/2020

Date of acceptance: 13/12/2020

Abstract

Baghdad crosses one of the oldest Arab capitals in the world. It has a coherent cultural, archaeological and cultural heritage over the years. The civilization of Babylon and Assyria has occupied the world for centuries, and there are many important historical buildings that are located in Baghdad, including streets, schools, homes, and many civilized witnesses. These witnesses were witness On the era of cultural, intellectual and social renaissance boom, but due to the conditions that the country went through, these buildings were exposed to many problems, including neglect, erosion, and climate conditions, as well as the expansion of the city, and thus the urbanization of the city crept upon it, which affected them and that joy and sophistication is no longer in it Here comes the role of the engineer and the archaeological, artistic and researcher and legislator in order to work to maintain these buildings and rehabilitation and work to re-work out and mix with the pillars of modern buildings, as in the Rashid Street, the school Mustansiriya, mosques and churches scattered here and there.

Keyword words: buildings, historical, Baghdad

المقدمة :

بغداد مدينة السلام وحضارة العالم وهي قلب العالم العربي النابض هكذا كانوا يطلقون عليها وتلك لم تأتي من فراغ بل جاءت من تراكم الخبرات خبرات الأجداد من خلال التراث المتجدد للعادات والتقاليد والمباني التاريخية والتراثية التي تنتشر في بغداد فالمباني التاريخية تتنوع بتنوع الثقافي والاجتماعي والبيئي فمنها المدارس والخانات والأسواق والبيوتات التي تزخر بعناصرها المعمارية الإسلامية ولكن للأسف في السنوات الأخير شاهدنا كثير من المشاكل التي تعاني منها المباني التاريخية والتراثية فقد ضهر اندثار لكثير من هذه المباني بسبب سوء الاستخدام أو عوامل إدارية ومادية وزحف العمران المدني عليها بالإضافة إلى عوامل التعرية وتغير المناخ بل تعدى بعضها إلى إهمال الو ضيفة التاريخية الرئيس له في مرمى ومسمع من الجهات ذات العلاقة كما في شارع الرشيد أو الإهمال الذي يسيطر على المدرسة المستنصرية أو اندثار كثير من المباني التراثية في الكاظمية بشناشيلها الخشبية وعناصرها المعمارية الرائعة وهنا في هذا البحث المتواضع أحاول ان أسلط الضوء على بعض من المشاكل التي تعاني منها المباني التاريخية وعلى السبل الكفيلة بالنهوض بها والحفاظ عليها من عوامل التعرية وأيدي العابثين وبشكل يتناسب مع تضافر الجهود بين الحكومات والمواطن من جهة وبين القطاع العام والخاص من جهة أخرى لوضع بعض الحلول التي تتناسب مع المباني التاريخية .

المبحث الأول

أولا لمحة تاريخية :

بعد عام 145 هجرية ، أسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد لتكون أول مدينة عربية أسلامية ولتكون قاعدة الخلافة العباسية الإسلامية على ارض الرافدين ، واختار لها موقعا متميزا هو بمثابة القلب من الجسم ، وجعلها مدينة تغفوا على ضفاف دجلة ، نهر الخير والمحبة والسلام ، وتستمد منه مقومات مجدها وخلودها ، ومرت السنون والأعوام ، وتبدلت الأحوال والأجيال وتعاقبت المحن والمسرات ولكن بغداد هي ونهر دجلة هو .

والناس هم الناس ، الآباء والاجداد منذ بناء المدينة المدورة في موقعها في مدينة الكرخ وعند اتساع عمرانها في مدينة الصرافة ، والى حدود باب كلوذا (الباب الشرقي) وهم من بنوا المدرسة المستنصرية والقصر العباسي وخان مرجان ، وهؤلاء هم من عملوا بدأب لشق شارع الرشيد .

والناس هم الناس والأبناء الذين يزيحون عن كاهل المدينة غبار الماضي ، وصدا السنين ، ليعود وجه بغداد جميلا متألقا يسطع في نور الشمس ، ومن هنا نستنتج ان بغداد مسيرة طويلة من العمران عمراها يمتد منذ عام 145 للهجرة إلى يومنا هذا لتعبر من خلالها عن خلودها وعمرانها وتقاليدها فهي صفحات من المجد والحب والسلام وهي قصة لا تنتهي ، بل يضيف عمل الأبناء صفحات ناصعة جديدة إلى هذه الأسطورة الرائعة (تاريخ بغداد الخطيب البغدادي – ت/436هـ)

كثيرة هي الرموز في أسطورة بغداد ، في إحداثها ومواقفها وفي حضاراتها ، وفي عمارتها وفنها وفي كل ثناياها تاريخا وتراثا وستبقى هذه الرموز نجوما متألقة تستهدي للباحثين بهذا الطريق (عبادة : عبدالحميد ، العقد اللامع في المساجد والجوامع والحسينيات في بغداد ، مخطوطة المتحف العراقي).

وإذا كانت الصعاب والمحن التي مرت بها بغداد ، قد أزالت الكثير من معالمها ، ولم يبقى منها سوى الذكريات والإطلال التي حفظتها لنا أقلام المؤرخين لنركن إليها نستلهم منها العبر والتجارب ، لاسيما وان بعض هذه المعالم وقف شامخا بوجه الزمن وتحدياته ، لينقل ألينا صورة حقيقية عن بعض جوانب النشاط الإنساني في بغداد القديمة لذلك تبرز حقيقة الأهمية الكبيرة في المحافظة على التراث العربي الإسلامي لمدينة بغداد والعمل على صيانته ومحاولة بعث الروح فيه عن طريق خلق سبل المعايشة الحقيقية بينه وبين الناس (عبد الرسول : 1978 ، ص46).

وإذا كانت المعالم الأثرية القديمة محدودة جدا في عددها ، ولم تصلها المدركة الواعية بأهميته إلا متأخرة ، فان المعالم التراثية كثيرة بشكل ملحوظ والتي نماذج ودلالات مادية قائمة تعمق الاتصال العلمي والعملي ، العقلي والروحي بين التراث والمعاصرة (كوك: 1979ص260-261) .

ثانيا معني التراث :

التراث هو كل ما تركه لنا الأجداد من فنون وآداب وعلوم واقتصاد وجميع فعاليات الحياة الاجتماعية والتراث نوعان التراث المادي والتراث المعنوي ،وللتراث المادي شكلان وهو التراث المنقول ، والتراث الثابت ، فالتراث المادي المنقول ممكن الحفاظ علية من خلال إيجاد الممارسات والإجراءات البسيطة والسريعة للحفاظ علية ، ولكن التراث الثابت فان الخطر يتهدد هذا التراث وهو تراث غير منقول وهو شكل من إشكال المباني التراثية بكافة أنواعها وذات الأغراض المختلفة ، كالأسواق والبيوتات التراثية والمدارس والخانات والصوامع لذلك تبرز الضرورة في الاهتمام السريع بهذا الجانب من الموروث وهو احد أسباب هذه الدراسة (الدواف : 1969 ،ص324) .

ثالثا تاريخ المباني التراثية :

لعل ما يكسب العراق أهمية متزايدة ، كونه واحد من أقدم مراكز الحضارة في العالم وفي تاريخ الإنسانية جمعاء فقد شهد أديم هذه الأرض أقدم التجارب والمحاولات الإنسانية في شتى صنوف المعارف والعلوم والأفكار والآداب وحقق العراقيون منجزات رائعة في حقل البناء والعمارة والفنون والصناعة واستمرت خطواتهم متواصلة دون انقطاع تستلهم الخصائص والمميزات المكانية والزمانية بكل شروطهما ، وتفاعل بينها وبين الحاجات المتزايدة والمتطورة لتوصل الحياة الإنسانية إلى مستويات اعلي كما ونوعا (عبادة : 1978 ص38).

1- ان واحدة من ابرز الخصائص الجوهرية في المباني العراقية سواء كانت هذه المباني أثرية أم تراثية ، تتمثل في القدرة العالية للمعمار العراقي على استيعاب خصائص الأرض والمناخ والبيئة ، والمتطلبات الوظيفية للمبنى وخلق التالف بينها وبين مواد البناء المتوفرة ، وصولا إلى مبان ذات شكل ومضمون يحقق الاستخدام الأفضل للإنسان سواء كان ذلك في إطار الاستخدام الفردي أو الاستخدام الجماعي ،للوحدات السكنية في القرى أو المدن القديمة فيما يصطلح علية في الوقت الحاضر بالتخطيط الحضري (الدواف : 1969 ص172).

ترجع أول المحاولات الناجحة في البناء إلى عصر حضاري موغل في القدم من تاريخ العراق القديم ، يعرف باسم (عصر حسونة) نسبة إلى تسمية محلية لموقع اثري قديم قريب من مدينة الموصل يعرف باسم تل حسونة ، ويرجع زمنه إلى خمسة ألاف سنة قبل الميلاد ، ان تخطيط البيت ومواد البناء البسيط وأبرزها الساحة الوسطية المكشوفة ، التي تشكل محور البيت ونقطة التوزيع إلى المرافق المتعددة ، إضافة إلى دورها الهام في التهوية والإضاءة والاستخدامات العائلية الكثيرة ،وقد يظهر مخطط البيت بعض التغير ، لكنة في جوهره بقي دون تغير في الشرق منذ أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، مادام يفي بمطالب المناخ والحياة الاجتماعية معا (اسم محلي لتل اثري يقع على أطراف نهر دجلة جنوبي مدينة الموصل بقليل ، كشفت أعمال التنقيب الأثري فيه عن بقايا بنائية ومخلفات أثرية منزلية متعددة ومواد أخرى مختلفة أثبتت دراستها أنها تخص مزارعين عاشوا منذ ألاف السنين وفي حدود خمسة ألاف سنة ق.م وكان من ابرز الموجودات الأثرية في تل حسونة بقايا الأبنية السكنية التي كشفت عن تفاصيل المخططات ومواد البناء المستخدمة .).

ان هذه الخاصية في التخطيط ، إضافة إلى خصائص أخرى عديدة في الشكل والمضمون واستخدام المواد الأولية تكشف بوضوح عن الحس المعماري المتفاعل مع الحاجات والإمكانات ، وليس تقليدا ميكانيكيا لعناصر معمارية متوارثة وليس أدلة على ذلك من التوجهات المعمارية الحديثة صوب استلهام الخصائص التراثية في البناء ، ومحاولة تطبيقها على ارض الواقع ، على الرغم من درجات التوفيق والنجاح في هذه الأعمال .

ان الإشارة إلى دور فترة حسونة نقصد من ورائها التأكيد على أهمية دراسة الموروثات المعمارية وتحليل عناصرها واستلهام فلسفتها لكي تكون الطرق الصحيح لعمارة عراقية جديدة، توفق بين الحاجات ومتطلبات الحياة وبين مجموع الخصائص العراقية من ناحية البيئة والمناخ والعادات والأفكار وما إلى ذلك (كوك:1979 ،ص261).

وإذا كان التاريخ تجارب وعبر، فالأجدر بمعمارنا العراقي المعاصر ان يستلهم (فتحي وإبراهيم : 1986 ،ص188) التجارب والعبر من تاريخ العمارة العراقية التي تزيد عمرها على سبعة آلاف سنة .

ان الحديث عن تاريخ البناء في العراق قصير جدا على الرغم من عمره الطويل ، وذلك لان كثير من العناصر الأساسية للبناء لم تشهد تغيرات جوهرية ، وإنما شملت المتغيرات عناصر ثانوية تطلبتها ظروف التطور ، واستعمالات مواد بناء جديدة أو بعض التفاعلات الحضارية مع شعوب ومراكز حضارية أخرى (كوك : 1979، ص257).

أما جوهر البناء الذي يتمثل في التخطيط الأساسي ومواد البناء ووحداته ومرافقه الرئيسية والثانوية والتي هي في الغالب شروط يفرضها الواقع المادي ومستويات التطور فيه ومع ذلك بقيت خصائص مميزة لعمارة عراقية دام عمرها لأكثر منى سبعة آلاف سنة (إي حوال 500سنة قبل الميلاد) والى حوال 2000 للميلاد إلى الوقت الحاضر وهذا يؤكد على عناصر التواصل الحضاري بين الموروث المعماري وبين تركة العمارة التراثية (جواد وسوسه : 1958 ،ص67-269).

المبحث الثاني

خصائص ومواصفات المباني التراثية

أولا الأرض :

ونقصد بها المساحة الأرضية المخصصة للبناء في شكلها وإبعادها وموضعها ان المباني التراثية ترتبط بأيام المدن المسورة ، إي بالمساحات المحدودة للمبنى الواحد ولمجموعة المباني في المدينة الواحدة لذلك تكون أبعاد الأرض في الغالب محدودة جدا نظرا لازدحام عدد كبير من المنشآت في مساحة محدودة بحدود سور المدينة كما تبرز شروط أخرى تحدد مساحة الأرض ، من أهمها الحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية والخصائص البيئية (عبادة : مخطوطة ،ص37)، كما يلعب موقع الأرض دورا في رسم الشكل النهائي للمبنى ، فالأرض المطلة على النهر تفترض بالضرورة سراديب اقل عمقا من غيرها لقرب المياه الجوفية المتسربة من النهر منها ، كما ان الأرض المطلة على الأسواق تفترض شكلا في البناء قد يفرز بعض مساحته لبناء دكاكين .

أما أشكال الأرض ، فهي على العموم غير منتظمة ولو أنها تميل إلى الأشكال المضلعة ويكثر بينها الأرض المستطيلة أو المربعة وهي الأرض التي تساعد على قيام جدران مستقيمة ووحدات بنائية بزوايا قائمة وهي الشكل الأفضل والأمتن في البناء (جواد وسوسه : 1958، ص67-269) .

إما العامل البيئي عامة وشروط المناخ خاصة ، فقد كانت تمنع هي الأخرى الامتداد في مساحة الأرض ، لان المساحات الكبيرة ستفرز بالضرورة مساحات وسطية مكشوفة واسعة ، وذلك يهيأ لسقوط أشعة الشمس لساعات

أطول فيجعله معرض لتبدل الطقس أسرع ، فيبرد في الشتاء ويكون حار في الصيف (كوك : 1979،ص258-259) .

ان مساحات الدور التراثية في بغداد تتراوح ما بين (40- 120) وأحيانا تقل عن 40 وأحيانا تزيد عن 120 ، ولكن يجب ان نتعامل مع معدلات الأساس في هذه المعادلة ومن هذا يتضح ان على المهندس العراقي ان يوفق ما بين المساحات الصغيرة وبين مواد البناء ، وصولا إلى الشكل والمضمون المناسب (جواد وسوسه : 1958، ص260).

ثانيا مواد البناء :

ان الحديث عن مواد البناء للمباني التراثية سيلزمنا بالضرورة لعرض بعض الجوانب التاريخية الخاصة بمواد البناء في العراق ، فبسبب طبيعة المواد الأولية المتوفرة وتآلفها مع البيئة العراقية وبسبب التواصل الحضاري لتقاليد العمارة والبناء فقد بقيت الكثير من نوعيات مواد البناء مستمرة الاستخدام لأكثر من خمسة ألاف سنة ان أقدم مواد للبناء في تاريخ العراق تتمثل في كتل الطين المهيأة للعمل والتي تعرف محليا بالطوف(الطوف يعني الطابوق الطيني الذي يستخدم في البناء) ، وهي مادة متوفرة في العراق وقد استخدمت منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد وفي أقدم الدور السكنية في العراق في مرحلة تل حسونة ، ولايزال استخدامها معروفا في تشيد الدور القروية والعشوائيات حتى الوقت الحاضر .

وقد تطور استخدام الطوف قديما بوضع كميات من الطين المخمر والمخلوط مع التبن في قوالب مضلعة الشكل مختلفة الأبعاد وصولا إلى إشكال منتظمة استقامت بواسطة الجدران وازدادت قوة البناء ومتانته ، وتعرف هذه الكتل الطينية المنتظمة المجففة طبيعيا في الشمس بالبن ولايزال استخدام اللبن معروفا في العراق على نطاق محدود في المباني القروية أيضا .كما انه يمثل مرحلة في صناعة الطابوق قبل أرساله إلى الأفران (جواد وسوسه : 1958، ص188).

ولن يتأخر العراقيون عند صناعة الأجر كثيرا فقد وصلتنا أبنية منذ مطلع الألف الثالث ق.م استخدم فيها الأجر بحجوم مختلفة ولكن بقي محافظا على شكل المضلع كما هو في الوقت الحاضر لعلاقة ذلك بدور الأجر في البناء (جواد وسوسه : 1958، ص269).

وأصبح استخدام الأجر شائعا في عموم الأبنية العراقية القديمة والتراثية ولايزال استخدامه كبير إلى الوقت الحاضر ، ولم تستطع مواد البناء الأساسية الأخرى ان تحل محلة ،لوفرة مادته الأولية ، ولسهولة صناعته ، والاهم من ذلك ملائمته لشروط المناخ القاري الحار الشائع في العراق (جواد وسوسة : 1958، ص242).

وقد هياء الأجر فرص التواصل لبناء الأقبية والسقوف المعقودة وأقواس المداخل وبذلك ساعد في تلافي النقص المعروف في مواد بناء السقوف من الألواح الخشبية المتينة والمستقيمة ، لذلك نستطيع ان نؤشر السقوف المعقودة بطريقة الأقبية أنها تواصل معماري قديم النشاءة في العراق ، كما يساعدنا ذلك عند دراسة المباني التراثية لفرز المنشاءات الأقدم زمنا من بينها (الدواف : 1969 ص11)

ولم يقتصر الأجر بشكله وحجمه الطبيعي لأغراض البناء وإنما صنعت نماذج منه طلبت بأصباغ معدنية رسمت عليها أشكال زخرفيه بألوان متعددة في ابتكار رائع لأغراض الزخرفة والتجميل فيما يعرف اليوم بصناعة القاشاني (الدواف : ،1969 ،ص26) .

كما صنع من الأجر أشكال لوحدات زخرفيه أو أقسام تشكل في حال رصفها مع بعضها أشكالا حيوانية وبذلك فان ما نعرفه من استخدامات واسعة لمادة البناء الرئيسية في العراق وهي الأجر في مجموع الأبنية التراثية وبعض الأبنية الحديثة أنما استخدامات متطورة عن خبرات في هذه المجالات ترجع إلى تاريخ العراق القديم (الدواف : 1969، ص271) .

إما الحجر كمادة بنائية فبسبب قلته في العراق ونوعيته الاعتيادية فقد اقتصر استخدامه في تشيد الأسس لبعض الأبنية ، كما شاع استخدامه في المدن القريبة من مصادر الحجارة كما في مباني الموصل واربيل وفي تاريخ العراق القديم ،إما المادة البنائية الأخرى التي استخدمت في المباني التراثية فهي الخشب وكانت تؤخذ من جذوع النخيل بالدرجة الأولى ، فقد دخل الخشب في الاستخدامات البنائية المختلفة ، أما المادة الرابطة في المباني التراثية فكانت الجبس (الجص) الذي يصنع من حرق حجر الكلس ثم سحقه وتصفيته من الشوائب ، فهو في حالة إتقان استخدامه يتصلب بسرعة ويؤدي إلى تماسك صفوف الأجر مع بعضها بشكل متين كما يشيع غالبا ان يستخدم الجبس كمادة طلاء واكساء لواجهات الجدران الداخلية وأحيانا الخارجية أيضا . فهو يكسب الجدار سطحا مستقيما ابيض اللون إضافة إلى تمتين البناء وشد أجزأه في وحدة متراصة قوية (الدواف : 1969 ، ص 67) .

استخدمت النورة الجير الحي لربط مواد البناء في الأسس بسبب مقاومتها العالية للرطوبة (الدواف : 1969 ، ص 136) .

2- كما استخدم المعمار العراقي مادة اللبن فقد استخدمت في البناء للأبنية سميت بأبنية اللبن فأن موادها اللاصقة وملاطها يكون من الطين نفسه (السلطاني : 1980، ص62)

أما القير وهي مادة الذي يكثر وجودها في العراق ، ويطفوا على سطح الأرض في بعض مناطق العراق مثل مناطق هيت والقيارة وبسبب كثرته في هيت أطلق العراقيون القدامى اسم مادة القير وهي (hittu) على المنطقة التي

لاتـزال باسـمها وهـي (هيـت) ويشـكل القيـر مـاده لاصـقة للبنـاء (عـن صـناعة الطـابوق انظـر : سـومر ص 38 ، ص 376 بغداد 1982،)

ثالثا المعمار :

3- ويبـرز دور المعمـار واضـحا وكبيـرا عنـد الحـديث عـن الأبنيـة التراثيـة حيـث تجمـع فـي قـدرات المعمـار ، فمنهـا حسـابات التصـاميم الإنشـائية وإبـداعات المعمـاري الجماليـة .كمـا يتـوفر المعمـاري التراثـي عـادة علـى جميـع المعلومـات الفنيـة والتقنيـة التـي تخـص اسـتخدامات مـواد البنـاء مـن حيـث النـوع والشـكل وطـرق التعامـل ، وبـذلك يمكننـا مطابقـة عـدد مـن الاختصاصـات الهندسـية المعاصـرة مـع الاختصاصـات العامـة الـذي كـان المعمار القديم يتولاه ويشرف علية (العمري : ،1954، ص52)

4- ولـم يتلقـى المعمـار التراثـي العلـوم والفنـون الخاصـة فـي المـدارس والمعاهـد . وإنمـا يتعلمهـا بالممارسـة العمليـة المضـنية لسـنوات طويلـة قـد تصـل إلـى ثلاثـين أو اربعـين سـنة مـن عمـرة ، وذلـك عنـدما يسـتطيع ان يبلـغ مسـتوى التخمـين والاجتهـاد والتنفيـذ الصحيح لتصميم البناء وتعين مواده وتنفيذه (إبراهيم : 1987 ،ص25-29)

فمهمـة البنـاء تعتمـد علـى تصـحيح البنـاء وتعـين المـواد الأوليـة وتحديـد اسـتخدام مـواد البنـاء كمـا ونوعـا لبلـوغ مسـتوى أفضـل فرقـي المبنـى يعتمـد علـى مسـتوى الإبـداع والإتقـان عنـد المعمـاري فـي تحقيـق الانسـجام والتناسـق والتنـاظر وتوافـق الموضوعات مع بعضها البعض(ابراهيم : 1987 ،ص85) .

ومـن المعـروف فـي المبـاني التراثيـة ان الأجـزاء الخشـبية تحتـل جانبـا كبيـرا ، وبخاصـة فـي الطـابق الأول مـن إشـكال الشـبابيك وإطـارات الأبـواب وأقواسـها وتغليـق السـقوف والأعمـدة وتيجانهـا وهـي جميعـا مـن عمـل النجـار مـن دون شـك ، ولكـن الـذي يلفـت الانتبـاه ذلـك الانسـجام والتوافـق بـين الزخـارف الخشـبية وبـين الزخـارف القاجاريـة أو الجصـية ممـا تسـمح لنـا بالاسـتنتاج بـان مهـارات النجـار التراثـي كانـت تخضـع فـي كثيـر مـن الأحيـان لتوجيـه وتحديـد مسـارات مـن قبـل المعمـاري أيضـا ،لأنـه يحسـن تقـدير أشـكال الزخـارف ونـوع الشـبابيك وحجمهـا ومواضـع الزخـارف النافـذة عـن المغلقـة ومـا إلـى ذلـك مـن أمـور تشـكل فـي حالـة اكتمـال البنـاء وحـدات منسـجمة ومتآلفـة تحقـق الحـوار الـدفيء بـين الشـكل والمضـمون ، مما يهيئ الانسجام الإنساني الأفضل لهذه المنشاءات (إبراهيم : 1987 ، ص85-95) .

رابعا خصائص العمارة :

- تأثر بالبيئة الجغرافية والطبيعية والبشرية لانتقال مركز الدولة من الشام للعراق .
- ظهرت أعمال فنية وعمارة متأثرة بالفنون الفارسية .

- مواد البناء : أصبح اللبن والآجر مادة بناء رئيسين .
- ضخامة وكبر مساحة القصور والمباني الأخرى .
- شيوع استعمال القباب بالإضافة إلى الأسقف المستوية المحمولة على اعمدة مستطيلة من الآجر (أي السقوف الثانوية).
- ظهور القوس المدبب ، قوسان بتاج دائرة كبيرة وصغيرة في كل جنب .
- تطور هذا العقد ليصبح أكثر أو أقل تقعرا .
- ظهور نوع من المآذن الملتوية في ثلاثة مساجد ، واثنان في سامراء ، والثالث في مصر ، تأثرا بالمعابد القديمة في العراق .
- ظهور النقوش الجصية أو الرسوم الملونة على الجص واستخدام الخشب المنقوش المصبوغ .
- أشكال نباتية وهندسية (أوراق وعروق) .
- بعض التصوير (حيوان وطير وإنسان) في القصور.
- ان الأجزاء الخشبية على أنواعها تحتل جانبا كبيرا من المباني التراثية .
- احتضان الأيدي الانكليزية عددا من الحرفين والمهندسين المعماريين العراقيين ليطبقوا بعد رحيل المعماريين الانكليز نفس أفكارهم وأساليبهم وخططهم في العمارة العراقية (العلي : الدكتور صالح ، بغداد مدينة السلام ، ص65) .

خامسا

محددات التصاميم الأساسية للمباني:

ان المباني التراثية تخضع لعوامل عديدة تحدد الأطر العامة للتصاميم الأساسية ، سواء كان في شكل العمارة أو التخطيط أو مواد البناء .

فتلك الظروف أملتها الظروف الطبيعية على الإنسان منذ القدم وربما يشترك الإنسان مع غيرة من الكائنات الحية في اتخاذ مساكن يلجأ إليها لنقاه من البرد والحر ، ومن المطر والعواصف ،ومن شرور الحيوانات الكاسرة في وحشة الليل المظلمة ،ويستوضح هذا التشابه بين الإنسان وكثير من الحيوانات في إشكال مواضع السكن الأولى عند البشر . فهي كهوف ومأوي صخرية وخنادق طبيعية ، وربما حفر في باطن الأرض عفا عليها الزمن (العلي : 1985 ، ص 71- 75)

وبذلك يختلف السكن الأول للإنسان عن سكن الحيوانات الأخرى ومن خلال المخلفات التي تكشف عن الهوية العاقلة المدركة المتفاعلة والقادرة على التغير لهذا الكائن الحي والتي تميزه عن سائر الكائنات الحية .

ومن هنا يجب علينا ان ندرس البناء التراثي في ضوء المعطيات الأثرية وعناصر الحياة المختلفة مجتمعة وتحديد ودراسة العلاقة الوظيفية لهذه العناصر والتي تتوافق مع الحاجات الإنسانية سواء كانت في بعدها الاقتصادي والاجتماعي أو البيئي أو الفكري ، أو أي بعد في حياة الناس يترك أثرة الواضح على جوانب العمارة التراثية (بخصوص دور المعماريين الانكليز وتأثيرهم انظر السلطاني) .

فالمسجد مثلا يرتبط بالضرورة مع الاسلام والمسلمين ، وتتحدد مواصفاته البنائية ومخططة ومرافقة ووحداته وزخرفته وعمارته تبعا لشروط الوظيفة الدينية والاجتماعية والسياسية والفكرية التي أحاط الاسلام المسجد بها ، ولكن على الرغم من الإطار الهام لبناء المسجد في أبعاده الفكرية التي تنعكس واضحة في عناصر ومقومات بنائه ، ولكن تفصيلاته الثانوية تختلف من بلد إسلامي إلى أخر وتكون مشروطة في الواقع البيئي أو التقاليد البنائية المتوارثة أو المواد الأولية أو الزخارف الإسلامية أو شكل المآذن المعمارية فقد تحددها عاملان مهمة وهي الزمان والمكان وهناك عاملين أساسيين حددا الملامح العامة للتصميم ، واستمر تأثيرهما لحقب زمنية وحضارية طويلة من تاريخ العراق ومن عمر العمارة التراثية والقديمة فيه وهما عامل المناخ ، وعامل المواد الأولية (فتحي : 1986 ص205) .

المبحث الثالث

أولا : أهمية المباني التاريخية في بغداد :

تعتبر بغداد حاضرة العالم وتراثها الخالد فنحن نتكلم عن السياسات التي تحافظ على ذلك الإرث الخلد من مباني تاريخية والى تعزيز الوعي بين صانعي السياسات الأثرية والتراثية والفنية بضرورة العمل على أعادة تلك السياسات الخاصة بالحفاظ على المباني التاريخية وكذلك تفعيل القوانين والمتعلقة بضرورة العمل من اجل تأهيل وإحياء مناطق المدينة التاريخية عن طريق اعتماد الاستراتيجيات المناسبة لهذه المناطق أسوة بالعالم من خلال دراسة المباني التاريخية وتأهيل البيئة المستدامة كعنصر أساسي في عملية التخطيط الشامل في النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بما بسهم أسهاما مباشر في خلق بيئة جديدة متطورة تخدم البلد وثقافته وإنشاء بيئة تحتية وخدمات حديثة(فتحي : 1986 ، ص205-206).

ان أهمية المحافظة على المباني التاريخية في بغداد تكمن في عدة اتجاهات منها :

1- المحافظة على حضارة وتاريخية المدينة أسوة بعواصم العالم الأخرى .

2- أحياء تراث الأجداد .

3- إيجاد نضام سياحي من خلال التسويق للمباني التاريخية والتراثية ونخص بالذكر مباني قائمة التراث العالمي .

4- إيجاد بيئة مستدامة وخضراء تتمكن من الصمود في وجه التطور .

5- تميز المناطق التاريخية في بغداد باعتبارها مناطق جذب للسكان .

6- إيجاد حلول لمشاكل المباني التاريخية والتراثية وحمايتها من الاندثار .

7- محاولة التمازج ما بين المباني القديمة والحديثة من خلال إيجاد بيئة تتناسب مع البيئة الحديثة .

8- الحفاظ على التراث العمراني للمباني التراثية منى خلال الحفاظ على هوية هذه المباني .

9- القيام بعملية جرد للعناصر المعمارية والزخارف الخاصة بالمباني ومحاولة عصرنتها وإدخالها في المباني الحديثة (عبد الرسول : 1987،ص17).

من هنا يجب ان نؤكد ان وجود المباني التاريخية في بغداد هي في وسط العاصمة بغداد ومحاطة بالشوارع الرئيسية والأسواق وكذلك قربها من ضفتي النهر وهذا يعطيها عناصر قوة ويجعل منها بيئة مستدامة متجددة فهي المحرك الرئيسي لاقتصاد المدينة ويأتي هذا من خلال ربط المدينة بمختلف فعاليات المجتمع المدني وإيجاد الوسائل التي تحاول إبراز دور هذه المباني ، فمحاولة تجديد مركز المباني التاريخية وخلق أماكن حيوية وجذابة وذلك لتحقيق الاستخدام الأمثل للبيئة الحضرية والعمل على ربط البنية التحتية المناسبة للعمل تكثيف التنمية بالمناطق ذات الجذب الاقتصادي والتجاري ، ومحاولة القيام بمشاريع تعزز التنمية الحضرية المستدامة لخدمة هذه المواقع التراثية القيام بتعزيز الهوية التاريخية والتراثية للمراكز التاريخية من خلال توظيف الإمكانات والطاقات البشرية وتنسيق الأنشطة الحضرية المختلفة بما يتلاءم مع التطور الحضري للمدينة من خلال استحداث مناطق جديدة للاستخدام التجاري والاقتصادي كالأسواق التجارية والمولاة وذلك للتنويع في استخدام الأرض وتوفير فرص عمل وكذلك فرص الاستثمار والاستعانة بتجارب دول قد سبقتنا في مجال الحفاظ على المباني التاريخية وإدخالها في اقتصاد البلد (العلي : 1985 ، ص89) .

ثانيا: أنواع المباني التاريخية في بغداد :

عندما نتجول في قلب العاصمة بغداد فنرى أمامنا وقبلها في مخيلتنا الكثير من المباني التراثية والتاريخية التي تتواجد في بغداد ومنها المباني الدينية والمباني المدنية وهنا لابد من التفرقة بين هذين المبنيين فالمباني الدينية تنتشر في بغداد واقصد بها العتبة الكاظمية المقدسة بالإضافة إلى المزارات المنتشرة فيه وأيضا المساجد والكنائس والحسينيات وكلها تشكل مباني تراثية ذات طابع معماري إسلامي مميز بكل ما تعنية هذه الكلمة من معاني وهي

تشكل وحدة متكاملة المرافق وذات ريازة معمارية مميزيه بزخارفها الملونة تارة ومذهبة تارة أخرى ناهيك عن محاكاة الذوق ومتجانسة مع متطلبات الحياة سواء كانت مسيحية أو مسلمة أو أية ديانة أخرى فهذه العمارة والريازة تتبع في بعض الأحيان من تعاليم الديانة من خلال العناصر المعمارية والتفاصيل المعمارية الأخرى للمباني ، وهنا لابد من التأكيد والإشارة إلى أنه بعد عام 2003 وصدور قانون ديوان الوقف الشيعي والسني والديانات الأخرى كان هناك اهتمام بهذه المباني من خلال تطويرها وترميمها وتوسعتها بالشكل الذي يتناسب مع أهميتها التاريخية والتراثية والدينية فهذه المباني ملاذ امن لكل طائفة وهي مرجع لكل المعماريين وطالبي العمارة في العالم الإسلامي فتطويرها (ابراهيم : 1987 ، ص85- 95)

والمحافظة على خصوصيتها لآياتي من فراغ بل بعدة خطوات سنأتي عليها في الفصل اللاحق .

أما المباني المدنية في بغداد فقد تنوعت بتنوع البيئة والوظيفة المعمارية فمنها الشوارع التي لها قيمة تاريخية وتراثية والأسواق والخانات والمدارس التراثية والبيوتات الشعبية التراثية وكلها تدخل ضمن قائمة المباني التاريخية والتراثية ، فشارع الرشيد وسوق السر بادي ، سوق الغزل ، سوق الصفافير ، خان مرجان ، خان الكتان ، المدرسة المستنصرية ، المدرسة النظامية ، المدرسة الأصفية ، بناية القشلة ، قصر الذهب ، مع كثير من البيوت التراثية والمنتشرة في الكاظمية وفي ابو نؤاس ومناطق أخرى ويطلق عليها بيوت الشناشيل وانتشار هذا التنوع في العمارة التراثية والتاريخية يعكس التفاعل ما بين الإنسان والبيئة في بلاد ما بين النهرين فهذا يعكس إضافة إلى الدور الحضاري الدور التجاري والإعلامي والفني فهي تعتبر مدرسة للخط العربي وتطوره بأنواعه المتعددة وهي مدرسة للتصوير في مراحل الزمنية المختلفة حيث ان وجود هذا الكم من المباني التراثية يعطينا كل عصر السمات الفنية العامة والخاصة لها

ثالثا: المشاكل التي تعاني منها المباني التراثية :

تعاني المباني التاريخية والتراثية من جملة مشاكل منها مشاكل فنية وبيئية ومنها مشاكل معمارية فهي من المشاكل المهمة وهي وسيلة للحفاظ على المباني ووسيلة لقياس درجة حضارة الشعوب فرقي الشعوب تقاس بدرجة الحماية التي توفرها المجتمعات لهذه المباني ودرجة تفعيل هذه القوانين وكيفية التعامل معها فالحفاظ على الموروث العمراني يهدف إلى عدة جوانب منها ديمومة هذه المباني والتي تعتبر تركة الأجداد لنا ، صيانة هذه المباني التراثية صيانة علمية دقيقة وإيجاد الحلول المناسبة لها ، ترسيخ الوعي الثقافي والسياحي للمجتمع من خلال المحافظ على المباني وإيجاد ترابط بينها وبين البيئة المستدامة واهم ضرر أيضا هو سوء الاستخدام وسوء التأهيل للمبنى وكذلك الإهمال

المتعمد من خلال عدم توفير الكوادر المتخصصة وعدم توفير الميزانيات اللازمة للتأهيل (مكية : 1978م ، ص،35)

إما العوامل البيئية التي تعاني منها المباني التاريخية والتراثية في بغداد فهي كثيرة ومتعددة منها الظروف البيئية والمناخية وعوامل التهرئة ومنها تغير مستويات الأرض من خلال تطوير المدينة الحديثة الحشرات الضارة كالأرضة والحيوانات السائبة المنتشرة في المباني التاريخية كالكلاب والفئران والطيور عوامل التعرية التي تؤدي إلى تشققات وتصدعات في المباني بالإضافة إلى ارتفاع مستوى الرطوبة نتيجة ارتفاع الأملاح ومستوى المياه الجوفية والإهمال المستمر وعدم الصيانة الدورية للمباني التاريخية .وكذلك التخريب المتعمد الذي يمارس من بعض الأشخاص عديمي المسؤولية مما يؤثر سلبا على المبنى .وأيضا من جملة المشاكل التي تعاني منها المباني التاريخية هي سوء التخطيط العمراني الحديثة والذي لم يضع المباني التراثية والتاريخية في تخطيط للمدينة الحضرية أو للتوسع العمراني ، التطور الحاصل في المدينة وزحف كثير من العناصر العمرانية الحديثة للمباني كالزجاج (والكبوند) ،هو عبارة عن ورق الفايبر كلاس الملون يستخدم للتغليف ، (مكية : 1978م ، ص35-40) في البناء الحديث ، أيضا من جملة الأسباب تقليد العمارة في دول أخرى من خلال التصميم العمراني والتي قامت على الزحف على العمارة العربية الأصيلة كعمارات الغرب والتصميم العمراني لها ، تعدد جهات مسؤولية المباني التاريخية وتعدد إداراتها وهذا الموضوع انعكس سلبا على الحفظ على المباني وديمومة وظائفها وأخير قلة التخصيصات المالية لتطوير هذه المباني التراثية وغياب الخطط الكفيلة برسم سياسات مناسبة لتحقيق التنمية المستدامة لهذه المباني ودمجها بالمدن الحديثة (مقابلة خاصة معه الدكتورة فوزية المالكي ، مدير إدارة التراث والدكتور قيس الموسوي رئيس الهيئة العامة للآثار) .

رابعا: الحافظ على التراث العمراني :

ويأتي من خلال أيجاد الحلول وإتباع الخطوات التالية :

ان المحافظ على التراث ممثلا بالمباني التاريخية والتراثية يشكل مشروح متوازن يحقق جسور ممتدة بين الماضي والحاضر يقوم على أساس تطوير المباني التاريخية وإعادة تدويرها من خلال توظيفها التوظيف الصحيح فذات الأمة التي تصنع التاريخ هي نفسها تعيد الذاكرة وتعتز بالماضي في صورة المستقبل فالحفاظ على المباني التاريخية هو إيجاد مساحات حضرية جديدة وتنشيط المباني القديمة في محاولة لأعادت توصيفها بشكل يتناسب مع قابلية المبنى بالوقت الحاضر من خلال إيجاد السبل الكفيلة لتشغيل هذه المباني وبما يتناسب مع جوا وطبيعة المكان والزمان للمبنى بحث تكون هذه المباني ساحة لانطلاق الكثير من فعاليات المجتمع بكافة أطيافه وبما يحقق الروح الوطنية ويجسد الهوية الوطنية من خلال إيجاد نشاطات اجتماعية وثقافية وفنية واقتصادية (مقابلة خاصة مع الدكتورة فوزيه المالكي ، مدير إدارة التراث وزارة الثقافة والأعلام).

.

وهناك عدة خطوات لابد من إتباعها لتحقق الحفاظ على المباني التاريخية ومن ثم تحقيق الهدف المنشود منها :

1- دراسة أوجه النشاط العمراني في بغداد القديم والحديث

2- فرز المباني التاريخية من خلال إحصاءها إحصاء علميا دقيق .

3- توثيق المباني التاريخية توثيقا علميا بعد القيام بالترقيم والعد له .

4- قياس واجهات النهر التي تطل عليها المباني التاريخية فمن الجدير بالقول ان العاصمة بغداد هي الوحيدة التي تهمل واجهات النهر .

5- الاطلاع على كافة الفعاليات والعشوائيات المقامة على وفي وبالقرب أو على حرم المباني التاريخية .

6- أيجاد فريق فني متخصص يشمل جميع التخصصات اللازمة لوضع رؤى اقتصادية حقيقية وخطط مرنة قابلة للتنفيذ على ارض الواقع .

7- أيجاد المبالغ اللازمة لتنفيذ خطط إعادة الأعمار للمباني التاريخية وبما يتلاءم مع المباني الحديثة في العاصمة .

8- العمل على تنقية وبناء بنية تحتية لمركز المدينة وربطها بالمباني التاريخية لكي يتلاءم والحفاظ عليها من الرطوبة ومياه الأمطار وبما يحقق التلاؤم البيئي فيها .

9- إيجاد البدائل اللازمة لشاغلي وعشوائيات المباني التاريخية وبما يعمل على عدم إرباك المشهد العملي للمدينة

10- إيجاد القوانين اللازمة والصارمة التي تقوم على أساس الشراكة بين القطاع العام والخاص من اجل العمل على إعادة الهوية التاريخية للمباني التراثية وتحقيق البيئة المستدامة .

11- إيجاد الخطط الاقتصادي والاستثمارية الأزمة لإيجاد الرؤى المستقبلية للعمل على تشغيل هذه المباني وبما يتناسب مع طبيعة المكان والزمان الحاضر .

12- إيجاد شبكة من طرق النقل المتخصصة والتي تتلاءم مع البنية الثقافية والمعمارية للمكان .

13- التنسيق الكامل بين الجهات ذات العلاقة للعمل على المباني سواء كانت دينية أو مدنية من اجل العمل والنهوض بها وتحقيق الأهداف .

14- العمل بخطوات مدروسة والعمل على مراحل متكاملة من اجل اكمال خطة العمل .

15- التنسيق الكامل مع الدوائر والمؤسسات السياحية ذات العلاقة لإدخال هذه المباني في عملية التسويق السياحي سواء كانت مباني دينية أو مدنية ، وبما يتناسب مع شروط السياحة .

16- العمل على توظيف المباني التاريخية وبما ينسجم مع طبيعة المبنى وإيجاد تناغم بينها وبين المباني الحديثة المجاورة له .

17- إدخال الأساليب الحديثة للمباني التراثية كالأنترنيت والعمل للترويج لها عن هذه الطرق الحديثة في(السوشلميديا) والبرامج العالمية الأخرى .

الخلاصة :

ان المباني التاريخية من المباني المهمة التي تؤدي إلى تفاعل المجتمع فالذي ليس له ماضي ليس له حاضر ولا مستقبل ،فالحفاظ عليها هو الحفاظ على الهوية الحضارية وهو جزء من الهوية الوطنية وجزء من الانتماء الوطني لهذه الأرض فقياس تقدم المجتمع يقاس بحضارته ومحافظته على مبانيه التاريخية وهويته الوطنية فتشريع القوانين والأنظمة الحضرية والتي هي نتاج طبيعي للوعي المجتمعي وللحفاظ عليها من الاندثار وقد وضعنا عدة نقاط ولابد من تكاتف الجهود ووضع الخطط المرنة وتهيأت السبل من اجل النهوض بهذا الركن الحيوي من المدينة ومواكبة التطور والتحضر ووضع الخطط اللازمة لذلك من اجل بيئة مستدامة تحافظ على هيئة ووظيفة هذه المباني وإيجاد شراكة حقيقية بين المواطن والدولة من جهة وبين القطاع العام والخاص من جهة أخرى ولاننسى الخطط المرنة التي تحقق النهضة التاريخية المدنية الشاملة وإيجاد تناغم وتكامل بين المباني القديمة والمباني الحديثة .

المصادر والمراجع :

[1]ابن منضور : محمد بن كرم – لسان العرب – ج9 ، بيروت ، (1375 - 1956 م)

[2]ابن سيدة : علي بن إسماعيل – المخصص –السفر الخامس ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأميرية ، بولاق مصر ،1318 هـ

[3]الحجية : عزيز ، بغداديات ، بغداد 1967 م

[4]الدواف : يوسف ، إنشاء المباني ومواد البناء ، الطبعة الثالثة ، مطبعة شفيق ، بغداد 1969 م

[5]السلطاني : خالد ، دراسة في عمارة العراق مابين الحربين ، افاق عربية ، عدد10 ، 1980 م

[6]شفيج : جاسم محمد – العمارة الشعبية في السماوة في مطلع القرن العشرين ، التراث الشعبي ، عدد 6 ، مطبعة دار الحرية بغداد ، 1395 هـ .

[7]عبادة : عبد الحميد ، العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع ، مخطوط في مكتبة المتحف العراقي .

[8]عبد الرسول : سليمة ، المباني التراثية في بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1987 .

[9]العمري : سعاد هادي ، (ترجمة) ، بغداد كما وصفها السواح الأجانب في القرون الخمسة الأخيرة ، مطبعة دار المعرفة ، بغداد(1373– 1954) .

[10] مكية : محمد ، الدور البغدادية والتراث السكني ، المجمع العلمي العراقي ، م29 –(1398هـ–1978م) نشر نقابة المهندسين العراقيين على نفقة كولبنكيان 1969م .

[11]احسان فتحي وجبر ابراهيم : بغداد بين الأمس واليوم ، مطبعة الأمانة ، 1986 م بغداد .

[12]حسين أمين : دكتور ، بغداد صورة من تراثها ، أمانة العاصمة ، مطبعة الأمانة ، بغداد ، 1986

[13]إبراهيم : عبد العال ، الحفاظ على التراث مطلب قومي وحضاري ، مجلة المدينة العربية ،العدد 26 ، 1987 .

[14]مقابلة خاصة مع د. فوزية المالكي ، مدير إدارة التراث ، الهيئة العامة للآثار والتراث ، وزارة الثقافة والأعلام .

[15]مقابلة خاصة مع د. قيس الموسوي رئيس الهيئة العامة للآثار والتراث ، وزارة الثقافة والأعلام

[16] الدكتور احمد سوسة ، جواد مصطفى ، دليل خارطة بغداد المفصل طبعة أولى – مطبعة المجمع العلمي العراقي بغداد – 1958

[17]عن صناعة الطابوق انظر : سومر ص 38 ، ص 376 بغداد 1982،

[18] الدكتور صالح العلي : بغداد مدينة السلام 1985 المجمع العلمي العراقي – بغداد

[19] الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد / 1422 هـ – 2001 م – الطبعة الأولى /مطبعة دار الغرب الإسلامي